٢ـ دعوة محمـــد

لتوماس كارليل

الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

الكعبة :

إنها أقدم المعبودات وأشرفهـا ، فقد ذكر المؤرخ الروماني (سيـلاني) أنها كانت في مدته أشرف المعابد في العالم وأقدمها طرا ، وذلك كان قبل ميـلاد السيد المسيح بأكثر من خمسين عاما . وتتكون الـكعبة من البناء الذي رفع قواعده ابراهيم واسماعيل ليحج إليه الناس ذاكرين ربهم ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسمـاعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)

والحجر الأسود الذي يعتقد بعض المؤرخين أنه ربما كان من رجوم السماء ، فإذا صح هذا الاعتقاد ، فلا بد أن يكون قد بصر به أحد وهو نازل من الجو . والبئر زمزم التي تنبع من بين الصخر . وأى منظر ، منظر الماء ينبجس من بين الحجر الصخرى الأصم كأنه الحيـاة من الموت ا وقد اشتق لها اسما (زمزم) من صوت تفجرها وهدير مياههـا . ويتفق أكثر المؤرخين على أنها قد تفجرت من تحت أقدام هاجر زوجة إبراهيم وابنها اسماعيل بعد أن أشرفا على الهـلاك ، فكانت لهم حيـاة وشفاء من الله

وقد عظم العرب الـكعبة وقدسوا البئر والحجر الأسود منذ آلاف السنين ، إذ كانوا يحجون إليها تقربا إلى الله وعبادة له . وكان من حج القبائل أن انشئت مدينة مكة وسط هضاب مقفرة وتلال من الرمال مجدبة وعلى مسافة من البحر بعيدة ، إذ كان كثير من الحجـاج يطلبون المأوى فلا يجدونه ، فأنشأوا هذه المدينة ليأووا إليها زمن الحج ، فكانت تلتقى فيها التجارة من أول يوم يلتقى فيه الحجاج . وعلى مر الأيام وجد جماعة من العرب أنفسهم مجتمعين لأغراض كثيرة تتركز كلهـا حول الـكعبة ، فأنشأوا لهم مساكن حولها وأقاموا متيمنين ببركتها محتمين بحرمتها ، ومن هـذا الوقت أصبحت مكة أهم أسواق البلاد العربية بأجمعها والمركز التجارى المهم بين الشـام ومصر وبين الهند ، بل بين الشرق والغرب . ولأهميتها في ذلك الوقت بلغ عدد سكانها في بعض الأحيـان أكثر من مائة ألف ، بين تجار ومشترين وموردين للبضائع وسكان أصليين . وكان يتولى أمرها جمهورية ارستقراطية عليها مسحة (دينية) فقد كان سكانها يختارون لها جماعة من عشرة رجال ، من إحدى القبائل ليكونوا حكامها وحراسا للـكعبة وسدنتها ، وكانت هذه لاشك طريقة غير سليمة . وقد انتهى هـذا الأمر في أواخر الأيام السـابقة لظهور النبي إلى قبيلة قريش التى منها أسرة محمد إذ أنها كانت هي التي تسكن مكة . أما بقية القبـائل الأخرى ، فكانت متفرقة في أنحاء الصحراء تفصلها الواحدة من الأخرى مسافات بعيدة من البيد والقفار ، وكانت كل قبيلة تختار لها أميرا وربما كان هذا الأمـير راعيا ، بل وكثيرا ما يكون لا عمل له إلا قطع الطريق والإغارة على القبائل الأخرى المجاورة . وكثيرا ما كانت الحرب تستمر سجالا بين القبائل مدة سنوات ، ولـكنهم على رغم تباعدهم وشتات شملهم وما بينهم من عداوة وبغضاء ، كانوا يلتقون حول الـكعبة فيجتمعون رغم اختلاف عقائدهم ، على مذهب واحد ، وهو تقديس الـكعبة وتعظيمها ، على أنه كان هنـالك شئ يجب علينا ألا ننسـاه وهو أنه كان بين العرب رابطة قوية ، ألا وهى رابطة الدم واللغة التى تفوق كل الروابط والتى توحد المشـاعر وتسهل التفاهم وتشعر بالتقارب

* * *

على هـذا المنوال عاش العرب قرونا عديدة خاملى الشأن لا أثر لهم في الحيـــاة ولا ذكر لهم في العالم ؛ فقد وصل بهم الاضمحلال والسقوط ، أن كان يستخدمهم الفرس والرومان في محاربة بعضهم البعض في الدفاع عن مصالح تلك الأمم . غير أنه في أواخر أيامهم حدثت بينهم دواعى اختلاط ، أخذت تربطهم وتقرب بينهم ، ثم أخذت تتسرب إليهم أنباء عن أكبر حادثة

وقعت فى ذلك الوقت على وجه البسيطة — وأقصد بها حياة المسيح ودعوته — فأحدثت هذه الدعوة تأثيرا ملموسا فى الأمة العربية وجمعت بين كثير من قبائلها ، وكأنما أراد الله أن يكون هذا العمل إرهاصا للدعوة الكبرى واليوم المشهود الذى ينتظره هؤلاء العرب ليعلو ذكرهم ويرتفع فى الآفاق شأنهم

• • •

ما أعجب أمر الكعبة وأعظم شأنها ! فهى التى جمعت بين شتات العرب ووحدت بين مشاربهم ، وكما هى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة الشريفة التى يرسلها لها السلطان كل عام والتى توقد فيها المصابيح فى ليلة الهجرة لتشرف تحت النجوم المشرقة، هى أجل أثر من آثار الماضى وخير ميراث من الغابر

هذه هى الكعبة التى يولى شطرها ملايين عديدة من المسلمين وجوههم من أقاصى الشرق إلى أقاصى الغرب من دلهى إلى مراكش ، كل يوم خمس مرات . تهفو إليها قلوبهم وتشخص أبصارهم . إنها والله لمن أجل مراكز المعمورة وأشرف أركانها

الإسلام :

ما هو الإسلام ؟ . كثيرون هم الذين لا يعرفون ما هو الإسلام ، أو يتساءلون مستهزئين هذا السؤال . أما الأولون فهم معذورون وأما الآخرون فهم حاقدون . ولهؤلاء وأولئك أقول

الإسلام هو أن نذعن لأمر الله ونسلم الأمر له ونتوكل عليه ، ونعلم أن القوة كل القوة هى فى الخضوع لحكمه والاستقامة لحكمته والرضا بما قسمه لنا فى الدنيا والآخرة . ومهما يصيبنا من شئ ، فلنعلم أنه من الله ويجب علينا أن نتقبله بنفس راضية ووجه باش ونعلم أنه الخير ولولا ذلك لما اختاره الله لنا . (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقد قال شاعر ألمانيا « جوته » عندما عرف أن هذا هو الإسلام : « إذا كان هذا هو الإسلام وهذه تعاليمه فكلنا إذن مسلمون » نعم هذا قول حق لأن كل من كان شريفا فاضلا كريم الخلق قوى اليقين فهو مسلم . وقد قيل : « إن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة ، لأن الضرورة تجعل المرء يخضع لها رغم أنفه ، فلا يكون له فضل فيما يأتيه ، وكيف يكون للانسان فضل فيما يفعله مكرها ! ولكن منتهى العقل وعين الحكمة هى اليقين بأن ما ينزل بالإنسان من حوادث الزمن هى الخير له ، وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن أفهامنا نحن البشر وتدق عن عقولنا ، وأنه من الخطل والسخف أن يعتقد الإنسان فى نفسه القوة ويجعل من عقله الضئيل ميزانا للعالم وما يجرى فيه من أعمال ، فيضع الأشياء فى غير مواضعها الحقيقية ، بل يجب عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن إدراكه وعجز عن فهمه ، وأن الخير هو أساس الكون ، والنفع هو روح الوجود ، والصلاح لباب الحياة ، عليه أن يعرف هذا ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى حتى لا يضل الطريق إلى الله . وهذا هو الإسلام

• • •

إن الإنسان يكون مصيبا وظافرا ، سائرا على الطريق الأقوم والخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، مادام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر ، غير مبال بالقوانين الوضعية السطحية والظاهرات الوقتية . إن المؤمن هو الذى يتبع القانون الجوهرى الكبير ، ذلك القانون السماوى الذى يعتبر قطب الرحى ومحور النظام فى الكون

وأول وسيلة يجب على من يريد أن يسير على نهج القانون الأعظم إتباعها ، الاعتقاد بوجوده وبأنه أصلح القوانين للحياة ولا قانون غيره يصلح لتنظيم الكون وقيادة العالم إلى الأمن والسلام مما يضمه البشر لأنهم قاصرون عاجزون . هذا هو جوهر الإسلام وروحه . وهو أيضا كان روح النصرانية من قبل ، يوم أن كان أهلها يعتقدون هذا الاعتقاد

الإسلام والنصرانية دينان سماويان . ويجب علينا أن نفهم أن الأديان السماوية تأمرنا بالتوكل على الله قبل كل شئ وأن نعظمه بقدر عظمة الكون الذى خلقه ، وتبعا لذلك يجب أن نزجر النفس عن الشهوات وننهى القلب عن الهوى والزيغ ، وأن نتعود الصبر على الأذى والأسى وأن نرضى بما قسم الله لنا وكل

ما يأتينا به الله إن هو إلا يد بيضاء من الله علينا ونعمة فراء من نعمه على الكون التي يجب أن نحمدها ونخر لله ساجدين شكرا، نحمده على كل حال ولو كان ضررا يلحق بنا فقد يكون فيه شفاء لنفوسنا وتطهير لقلوبنا مما بها من الشوائب والأدران (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

علينا أن نعرف موقنين أن عقولنا قاصرة عن معرفة شيء من أسرار هذا الكون الواسع ، وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، وما أحرانا أن نقول دائما : « إننا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون »

° ° °

لو تأملنا سرعة انتشار الإسلام ودخوله إلى القلوب وشده امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق ، وتجردنا من عصبيتنا البغيضة ، لتحققنا من أنه خير من النصرانية وأفضل تلك التي كانت منتشرة وقت ظهور الإسلام في كثير من بلاد العالم كالشام واليونان وغيرها ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس و يحول بطلانهـــا بين القلوب وبين الحياة الصحيحة ، فقد كانت قلوب معتنقيهـــا قفرا يبابا من المعاني السامية والروحية القوية التي يمتاز بها الإسلام . لقد كان في النصرانية عنصر من الحق ، غير أنه كان ضئيلا جدا وهذا هو السبب الذي جعل الناس يؤمنون بها ، لأن الناس مهما كانوا فهم يريدون الحق ويسعون إليه ، ولكن ما إن وجد الإسلام حتى أصبحت النصرانية على حالها هذا كالدعي بجانب الأصيل

فقد جاء الإسلام والنصارى فرق وشيع يقيمون أسواق الجدال ، يخطئ كل فريق منهم الآخر بالحجج الجائرة والبراهين المصطنعة الباطلة . فكانوا بهذا يطعنون دينهم بأنفسهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون حبا في شهوة النصر كمن يقال فيهم (يخربون بيوتهم بأيديهم) جاء الإسلام على الملل الباطلة والنحل الكاذبة والعبادات الضالة فمحقها ، وحق له أن يمحقها لأنها باطل وهو حقيقة خارجة من قلب الطبيعة الصادقة . إن الإسلام ما كاد يظهر حتى زالت وثنيات العرب واختفت من الوجود واحترقت جدليات النصرانية وذهب كل ما لم يكن حقا ، وصار حطبا التهمته نار الإسلام فحولته رمادا ذهب والنار لم تذهب على مر العصور

° ° °

نظر محمد ببصره النافذ إلى ما وراء معبودات العرب الكاذبة ومذاهبهم التي لا تقوم على أساس صحيح ، ونظر إلى اليهود وروايتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم وإلى النصرانية وجدلياتها . نظر إلى هذا وغيره بعينه الثاقبة وقلبه البصير الصادق وفكره المتوقد إلى جوهر الأمر وصميمه ، فقال في نفسه : ما هذه الأصنام التي تصقل بالزيت وتدهن فيقع عليها الذباب فلا تستطيع رده ، إنها خشب مسندة لا تضر ولا تنفع ، إنها باطل ومنكر فظيع وإغراق في الكفر بالله خالق الكون ومسيره ، ولكن الحق هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، الذي خلقنا وهو الذي يحيينا ويميتنا ثم يحيينا ، ويطعمنا ويسقينا ، وهو أرأف بنا منا إنه هو الرءوف الرحيم ، الذي خلق لنا ما في الأرض جميعا لننتفع به ونشهد على أنه هو الواحد القادر الذي يجب أن يعبد ، لا إله غيره

لقد آمن العرب بالإسلام ودخلوا فيه أفواجا راغبين غير مكرهين ، وإن ديننا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم وعضوا عليه بنواجذهم لجدير بأن يكون حقا وأن يصدق به لأنه حق لا مراء فيه

لقد اشتمل الإسلام على مبادئ عظيمة وقواعد جليلة ، وإن الشيء الوحيد الذي يجب على الإنسان أن يلحظه في الإسلام ، هو اشتماله على روح الأديان جميعا ، هذه الروح التي تلبس أثوابا مختلفة وتتشكل بأشكال متعددة ، ولكنها في الحقيقة شيء واحد

وباتباع قواعد الإسلام والتمسك بروحه يصبح الإنسان إماما كبيرا لهذا العبد الأكبر (الكون)

على الإنسان إذا أراد الهداية ، أن يسير على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا يحاول أن يقاومها أو يدافعها أو يعبث بها لأنه سيبوء بالفشل لا محالة لأن الله هو الذي يحفظها « إنا نحن